تفنيد بعض افتراءات المستشرقين على أساليب المحدثين في العناية بسند الحديث

الدكتورة/ عزية علي طه
قسم الدراسات الإسلامية -كلية التربية للبنات بأبها - جامعة الملك خالد

ملخص البحث:

الحمد لله الهادي إلى الصراط المستقيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه أجمعين، وبعد :

فقد تعرضت السنة النبوية الشريفة لهجوم مكثف من قبل كثير من المستشرقين وبخاصة في القرنين التاسع عشر والعشرين من أمثال مونتجمري وات «MONTAGOMERY WATT» وهاملتون جيب «H.GIBB» ولامينز «LAMMENS» وتريتون «TRITON» وفريلاند أبوت «FREELAND ABOTE» وغيرهم من المستشرقين.

وانصب هجوم هؤلاء المستشرقين في معظمه على أساليب المحدثين في تدوين السنة الشريفة وتوثيقها ليوهموا المسلمين أن المحدثين لم يهتموا بأسانيد الحديث إلا في النصف الأخير من القرن الثاني للهجرة، وادعوا أن نقد الرجال وتتبع أحوالهم نشأ في القرن الثالث الهجري ، وأن المحدثين لم يتحروا الدقة والموضوعية عند نقدهم لرجال السند ، كما أنهم لم يلتزموا بالقوانين التي ادعوا ابتكارها لضبط الحديث وتوثيقه ، وغير ذلك من التهم.

فهل حقاً بدأ التحري عن أسانيد الحديث النبوي الشريف في النصف الأخير من القرن الثاني كما يزعم بعض المستشرقين ؟

وهل وضع المحدثون مناهج دقيقة وقويمة لتمحيص أسانيد الحديث النبوي الشريف ؟ وإلى أي مدى قام هؤلاء المحدثون بالالتزام بتطبيق هذه المناهج في توثيقهم للسنة ؟ وما هى النتائج التي ترتبت على ذلك فيما يتعلق بحفظ السنة وصيانتها من العبث ؟.

للإجابة على هذه الأسئلة وأمثالها ، وإحقاقاً للحق ودحضاً للباطل ، وتفنيداً لهذه الشبهات التي أثارها المستشرقون فإن الكاتبة سوف تحاول في هذا البحث الموجز بإذن الله مناقشة موضوع أساليب المحدثين في العناية بأسانيد الأحاديث تبعاً لترتيب الموضوعات التالية :

أولاً : استعراض بعض التهم التي أثارها المستشرقون حول الأساليب التي اتبعها المحدثون في العناية بسند الحديث.

ثانياً : أسباب نشأة علم الإسناد وتطوره .

ثالثاً : المنهج الذي اتخذه المحدثون للعناية بسند الحديث .

رابعاً : بعض النتائج التي ترتبت على عناية العلماء بسند الحديث .

خامساً: الرد على الشبهات التي أثارها المستشرقون حول عناية العلماء بسند الحديث .

سادساً: الخاتمة .

Refuting some accusations of orientalists against the methodology of Hadeeth narrators in documenting the Prophet's Hadeeth

Abstract

Prophet Mohammad's sunnah, especially during the ١٩th and ٢٠th centuries, has met intensive attacks from orientalists. Most of these attacks were focusing on the methodology of the Hadeeth narrators in the documentation, verification and authentication of the Prophet's Hadeeth until the advent of the second half of the second century of Hijra.

The orientalists also claimed that the science of narrator's criticism was not practiced until the advent of the third century of Hijra. They also claimed that the Muhaditheen did not observe objectivity, precision and honesty during their criticism of the Hadeeth narrators, and they did not stick to the criterion which they have introduced for the documentation, verification and authentication of Hadeeth.

But in this research we have come to the following conclusions:

a) The practice of checking and verifying any news from anybody before accepting it is well ingrained in the Holy Quran and the Sunnah of the Prophet.

b) The practice of checking the credibility of the Hadeeth narrators started during the Prophet's life time.

c) The compilers of the Great Books in Hadeeth were very strict in their criticism for the Hadeeth narrators. They used to check the credibility of every individual in the chain of narrators. They never accepted the authenticity of any Hadeeth until they make sure that every individual in the chain of narrators of that Hadeeth was credible beyond any doubt.

According to the above findings we conclude that all accusations raised by orientialists against the methodology of Hadeeth narrators in documenting, verifying and authentication of the Prophet's Hadeeth were false and baseless.

أولاً: استعراض بعض التهم التي أثارها المستشرقون حول الأساليب التي اتبعها المحدثون في العناية بسند الحديث:

١. زعم بعض المستشرقين أن اهتمام المحدثين بأسانيد الحديث قد بدأ متأخراً حيث ظلوا خلال القرن الأول وإلى منتصف القرن الثاني الهجري يروون الأحاديث ويتناقلونها دون اهتمام يذكر بالسند مما أدى إلى تداول أحاديث كثيرة ليس من الممكن تتبع أسانيدها والوصول بها إلى قائلها في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته وتابعيهم

يقول في ذلك المستشرق مونتجمري وات « MONTAGOMERY WATT» في مؤلفه الفترة التكوينية للفكر الإسلامي «THE FORMATIVE PERIOD OF ISLAMIC THOUGHT» ما ترجمته :

«لم يكن من عادة المحدثين تدعيم أحاديثهم بالأسانيد ولم يكترثوا بذلك ، ولقد سار المحدثون على هذا المنهج وتناقلوا الأحاديث فيما بينهم إلى القرن الثاني من الهجرة ، وأن هذه الأخبار محاطة بكثير من الغموض لأن السنة لم تدون رسمياً إلا في القرن الثالث من الهجرة ، وأن علم البحث عن الرجال لم يظهر بوضوح إلا في هذا العصر» (١) .

ويقول المستشرق جيب « GIBB » في المعنى نفسه ، وذلك في مؤلفه « دراسة تاريخية حول الديانة المحمدية « MHAMMEDANISM : AN HISTORICAL SURVEY » ما ترجمته : « إن البحث عن أسانيد الحديث لم يظهر إلا في عصور متأخرة من الهجرة وقد قيل إن البحث عن الرواة بدأ في منتصف القرن الثاني من الهجرة .

ويدل على ذلك أن محدثي القرن الثالث الهجري قد عجزوا عن تتبع سلسلة السند للروايات التي كانت سائدة في عصرهم والوصول بها إلى قائلها في عصر محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته وتابعيهم » (٢) .

٢- زعم بعض المستشرقين أيضاً أن علماء الجرح والتعديل لم يتحروا الدقة والموضوعية في نقدهم للرجال ، وأنهم لم يلتزموا بالقواعد التي وضعوها لنقد رجال السند مما يوحي بأن منهج المحدثين في الجرح والتعديل لم يكن منهجاً قويماً .

---

(1) THE FORMATIVE PERIOD OF ISLAMIC THOUGHT P. 68
(2) MOHAMMEDANISM : AN HISTORICAL SURVEY PP. 56-57

يقول في ذلك المستشرق جيب «GIBB» في مؤلفه « دراسة تاريخية حول الديانة المحمدية » ما ترجمته كالآتي « إن المحدثين اجتهدوا في عمل قوانين لنقد رجال السند وتمحيصهم، ولكن في واقع الأمر نجد أن هذه القوانين قد طبقت على الرواة الذين وردت أسماؤهم في بداية السند ، وذلك لتمكن الجامع من معرفتهم أو اللقاء بهم بينما أهملت في حالة الرواة الذين بعد عصرهم عن عصر الجامع ، وهذا أمر طبيعي لأن معظم الأسانيد كانت قد اعتمدت في قرون متأخرة ، ولم تساعد القواعد التي وضعها المحدثون في سد الفجوة التي تفصل بين من جمعوا هذه الأحاديث في القرن الثالث الهجري وبين من صدرت عنهم في عصر محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته وهذا ما يجعل من هذه القواعد المزعومة مماحكات عقيمة لا قيمة لها.كما أن طريقة المحدثين في نقد رجال السند لم تكن ذات فعالية حيث لم تحل بين المحدثين وبين قبول الأحاديث الموضوعة مما حدا بكثير من النقاد الغربيين إلى الحكم على طريقة المحدثين في العناية بسند الحديث بالوهن وعدم الدقة » . (٣)

وفي المعني نفسه يقول المستشرق لا مينز «LAMMENS» في مؤلفه « الإسلام عقيدة ودولة » ما ترجمته كالآتي : « إن منهج المحدثين في نقد الرجال منهج ساذج ، حيث لم يكن منهجاً بالمعنى المتعارف عليه بقدر ما كان مدحاً لبعض الرجال وذماً لبعضهم الآخر تبعاً لميول الرواة الذين عنوا بقبول الحديث أو رده عند تصديهم لتدوين السنة . لقد عمل المحدثون قواعد ظنوها سديدة لتوثيق الرجال ومعرفة صفاتهم من عدالة أو صدق أو معاصرة أو لقاء وغيرها ، ويبدو أن هذه القواعد لم تكن كافية لحماية السنة من التلفيق ، وذلك لصعوبة تتبع طبقات الرواة ومعرفة بعضهم بعضاً ، ولصعوبة معرفة المتصل من المنقطع من الأسانيد مما أدى إلى تساهل المحدثين في أسانيد الحديث والتغاضي عن مسألة الأسانيد في بعض الأحاديث التي أسموها بالمتواتر » . (٤)

وادعى بعض المتشرقين كذلك أن كثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في كتب السنة الصحيحة من ابتكار المحدثين، وأن أصحاب المصنفات الحديثية الكبرى قد وجهوا جل اهتمامهم إلى جمع المتون وتكديسها والتوسع في ذلك مما أدى إلى تساهلهم في الأسانيد ومن ثم تسربت روايات الضعفاء والمجهولين والمتروكين إلى مصنفاتهم ، يقول في ذلك المستشرق فريلاند ابوت «×» في مؤلفه المسمى «الإسلام

---

(3) HISTORICAL SURVEY P.55MOHAMMEDAN ISM : AN

(٤) فيما يختص بهذا الموضوع يمكن الرجوع إلى : ISLAM BELIEF AND ISTITATION P.72
ISLAM: ESSAYS IN THE NATURE AND GROWTH. CULTURAL TRADITION P.78
الإسلام : مقالات في طبيعته ، ونشأته ، ونموه ، وتقاليده : ٧٨ .

وباكستان « « ISLAM AND PAKISTAN «ما ترجمته: «يدعي المحمديون أن الأحاديث النبوية الموجودة في بعض المصنفات الحديثية الكبرى صحيحة، ويزعمون أن السنة جمعت بمنتهى الدقة إلا أن مناهج المحدثين في اعتماد الحديث لم تكن مناهج سليمة، وأن معظم الرجال الذين استندوا عليهم في تقييم المتون كانوا من أهم العوامل التي أدت إلى تحريفها وملئها بالمتناقضات والفلسفات والأساطير التي كانت سائدة في تلك العصور بجانب كثير من الحكم والأمثال الواردة في أسفار العهدين القديم والجديد ، وعلى الرغم من ذلك اعتمد أصحاب المصنفات هذه الآثار الدخيلة وضمنوها في مؤلفاتهم الحديثية بعد أن اختلقوا لها الأسانيد المناسبة « .(٥)

ويقول جيب «GIBB» أيضاً في مؤلفه «دراسة تاريخية حول الديانة المحمدية «ما ترجمته: « إن الأحاديث في الإسلام قد دونت في عصور متأخرة وإن المناهج التي اتبعت في نقد الأسانيد جاءت متأخرة أيضاً . وعلى الرغم من ضعف هذه المناهج إلا أن أصحابها لم يلتزموها وكانوا أول من اعتدى عليها، وحتى الإمام البخاري لم يسلم من التغاضي عن القواعد التي عملها لفحص السند في كثير من الأحاديث التي اعتمدها في صحيحه وهذا نتج عن عدم تدقيق المحدثين في نقد الأسانيد التي وصلتهم عمن سبقهم بل أخذوها واعتمدوها دون تمحيص « . (٦)

ثانياً ـ نشأة علم الإسناد وتطوره :

إن علوم السنة النبوية الشريفة كثيرة ومتنوعة وهى بجملتها تنحصر تحت علمين رئيسين هما: علم الحديث رواية وعلم الحديث دراية . والذي يهمنا هنا هو علم الحديث دراية الذي ظهرت بوادره في عهد الصحابة رضوان الله عليهم ثم قوي هذا العلم وتشعب في عهد التابعين وأتباعهم إلى أن نضج وكمل في منتصف القرن الثالث الهجري وتنوعت فروعه وتشعبت حتى أوصلها بعض أهل هذا الفن إلى ما يزيد على الخمسين.

ولقد كان للقرآن الكريم أثر بالغ في الحث على تحري الدقة في قبول الأخبار أو ردها كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾. (٧) وقوله تعالى : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون

23-ISLAM AND PAKISTAN PP. 22(5)

58MOHAMMEDAN ISM : AN-HISTORICAL SURVEY P.57 (6)

فيما يختص بهذا الموضوع يمكن أيضا الرجوع إلى : 28 .PP THE TRADITION IN ISLAM-34 .

السنة في الإسلام : ٢٨-٣٤.

(٧)سورة الحجرات : الآية ٦

والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾. (٨) ، وقوله تعالى: ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ (٩) .

وكان للسنة النبوية المطهرة أيضاً أثر بالغ في حث المسلمين على التحري في تحمل الأخبار وروايتها كما في مقدمة صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « سيكون في آخر أمتي أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم ».(١٠) وأخرج الإمام البخاري بسنده من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تكذبوا عليّ فإنه من كذب عليّ فليلج النار » (١١) .

ومن حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من يقل عليّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار » . (١٢)

وأخرج الإمام مسلم بسنده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . (١٣)

أخرج الإمام ابن ماجه أيضاً بسنده من حديث أبي قتادة رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على هذا المنبر: « إياكم وكثرة الحديث عني فمن قال عليّ فليقل حقاً أو صدقاً ، من تقول عليّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار » . (١٤)

ولقد كان لأمثال هذه الآيات والأحاديث أثر عميق في عناية المسلمين بسند الحديث حتى صارت العناية بعلم الإسناد خاصية من خواص أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا تشاركها فيه أمة من الأمم الأخرى على مر العصور والأجيال .

ولقد امتثل الصحابة والتابعون وأتباعهم أمر الله سبحانه وتعالى وتمسكوا بتوجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في ضرورة تحري الصدق في جميع أقوالهم وأفعالهم ، وبخاصة بعد عصر الفتنة أي بعد

---

(٨) سورة النور : الآيات ١٢ ، ١٣

(٩)سورة النور : الآية ١٦

(١٠)أخرجه مسلم في المقدمة ،باب، النهي عن الرواية عن الضعفاء ٧٨/١ (من صحيح مسلم بشرح النووي).

(١١) أخرجه البخاري في كتاب العلم،باب، إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم١٩٩/١ (من صحيح البخاري بشرحه فتح الباري) .

(١٢)أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين ٢٠١/١ (من صحيح البخاري بشرحه فتح الباري).

(١٣)أخرجه مسلم في المقدمة ،باب،تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ٦٧/١، ٦٨(من صحيح مسلم بشرح النووي) .

(١٤)أخرجه ابن ماجه في المقدمة ،باب، التغليظ في تعمد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،حديث رقم ٣٥، ١٤/١ .

مقتل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويدلنا على ذلك ما جاء في مقدمة صحيح مسلم من أن ابن سيرين [١٥] قال:» لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم « . [١٦]

ويدلنا على ذلك أيضا ما روي في مقدمة صحيح مسلم من حديث مجاهد قال : « جاء بشير العدوي إلى ابن عباس فجعل يحدث ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه ، فقال: يا ابن عباس مالي لا أراك تسمع لحديثي ، أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسمع ، فقال ابن عباس : إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدرته أبصارنا ، وأصغينا إليه بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف « . [١٧]

كما جاء في مقدمة صحيح مسلم أيضاً أن طاوساً [١٨] قال : « جاء هذا إلى ابن عباس رضي الله عنه يعني بشير بن كعب فجعل يحدثه ، فقال له ابن عباس: عد لحديث كذا، عد لحديث كذا، فعاد له ثم حدثه، فقال له : عد لحديث كذا وكذا فعاد له ، فقال له ، ما أدري أعرفت حديثي كله وأنكرت هذا أم أنكرت حديثي كله وعرفت هذا . فقال له ابن عباس: إنا كنا نحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن يكذب عليه فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه «. [١٩] وفي رواية أخرى « فأما إذ ركبتم كل صعب وذلول فهيهات « . [٢٠] [٢١]

كما أن بعض الصحابة قد رحلوا وقطعوا المسافات الطوال متحملين المشاق من أجل توثيق أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم . خذ مثلاً أبا أيوب الأنصاري الذي رحل من المدينة إلى عقبة بن عامر بمصر يسأله عن حديث واحد لم يبق أحد سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم غيره وغير عقبة. أخرج الحاكم

---

(١٥)هو : محمد بن سيرين الأنصاري كنيته : أبو بكر من فقهاء أهل البصرة مات في سنة عشر ومئة ، انظر تذكرة الحفاظ ٧٧/١ ، ٧٨ .

(١٦)أخرجه مسلم في المقدمة ،باب، بيان أن الإسناد من الدين ٨٢/١ (من صحيح مسلم بشرح النووي) .

(١٧)أخرجه مسلم في المقدمة ،باب، النهي عن الرواية عن الضعفاء ٨١/١ ، ٨٢ (من صحيح مسلم بشرح النووي). قال الإمام النووي : أصل الصعب والذلول في الإبل ، فالصعب: العسير المرغوب عنه ، والذلول : السهل الطيب المحبوب المرغوب فيه. فالمعنى : سلك الناس كل مسلك مما يحمد ويذم (صحيح مسلم بشرح النووي ٨٠/١)

(١٨)هو أبو عبد الله التابعي شيخ أهل اليمن ومفتيهم ، توفى عام ١٠٦ هـ وصلى عليه هشام بن عبد الملك ، انظر تذكرة الحفاظ ٨٣/١ ، ٨٤ .

(١٩)أخرجه مسلم في المقدمة ،باب، النهي عن الرواية عن الضعفاء ٨٠/١ (من صحيح مسلم بشرح النووي).

(٢٠)هيهات : أي بعدت استقامتكم أو بعد أن نثق بحديثكم وهيهات موضوعة لاستبعاد الشيء واليأس منه (صحيح مسلم بشرح النووي ٨٠/١) .

(٢١)أخرجه مسلم في المقدمة ،باب، النهي عن الرواية عن الضعفاء ٨٠/١ (من صحيح مسلم بشرح النووي) .

هذا الخبر من حديث عطاء بن أبي رباح وفيه : فلما قدم إلى منزل مسلمة بن مخلد الأنصاري – وهو أمير مصر – فأخبره فعجل إليه فخرج إليه فعانقه ثم قال له : ما جاء بك يا أبا أيوب ؟ فقال : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق أحد سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم غيري وغير عقبه فابعث من يدلني على منزله ، قال : فبعث معه من يدله على منزل عقبة ، فعجل فخرج إليه فعانقه فقال : ما جاء بك يا أبا أيوب ؟ فقال : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق أحد سمعه غيري وغيرك في ستر المؤمن – قال عقبة : نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من ستر مؤمناً في الدنيا على خزية ستره الله يوم القيامة « [٢٢] ، فقال له أبو أيوب : صدقت ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعاً إلى المدينة فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلد إلا بعريش مصر « . [٢٣]

أورد الحاكم أيضاً في « معرفة علوم الحديث « عن عمرو بن أبي مسلمة أنه قال : « قلت للأوزاعي [٢٤] يا أبا عمرو ، أنا ألزمك منذ أربعة أيام ولم أسمع منك إلا ثلاثين حديثاً قال : وتستقل ثلاثين حديثاً في أربعة أيام ؟ لقد سار جابر بن عبد الله إلى مصر ، واشترى راحلة فركبها حتى سأل عقبة بن عامر عن حديث واحد وانصرف إلى المدينة وأنت تستقل ثلاثين حديثاً في أربعة أيام « . [٢٥]

حتى إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتوثقون في سماع بعضهم بعضاً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم كما بين ذلك الإمام مسلم من حديث عطاء بن أبي رباح أن أبا سعيد الخدري لقى ابن عباس فقال له : أرأيت قولك في الصرف أشيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم أم شيئاً وجدته في كتاب الله عز وجل ؟ فقال ابن عباس : كلا لا أقول ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنتم أعلم به ، وأما كتاب الله فلا أعلمه ولكن حدثني أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما الربا في النسيئة « . [٢٦]

---

(٢٢) أخرجه أحمد بن حنبل من حديث أبي أيوب ١٥٣/٤ وصفحة ١٥٩ . وأخرج البخاري نحوه في كتاب المظالم،باب، لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنه ٣٨٦/٥ (من صحيح البخاري بشرحه فتح الباري)

(٢٣) معرفة علوم الحديث : ٧ ، ٨ انظر أيضاً الرحلة في طلب الحديث: ١١٨ ، ١١٩ .

(٢٤) هو : عبد الرحمن بن عمرو بن محمد بن عبد عمرو الأوزاعي ، وقد قيل إن الأوزاع التي نسب إليها قرية بدمشق ، مات سنة سبع وخمسين ومئة . انظر تذكرة الحفاظ ١٧٨/١-١٨٣ .

(٢٥) معرفة علوم الحديث : ٧ ، ٨.

(٢٦) أخرجه مسلم في كتاب المساقاة والمزارعة ،باب، الربا ٢٦/١١ (من صحيح مسلم بشرح النووي).

وقد اقتدى التابعون بالصحابة في ذلك أمثال محمد بن سيرين الذي حث المحدثين على البحث عن حال الرواة وذلك في قوله : « إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم « . [٢٧]

وطاوس [٢٨] الذي قال لسليمان بن موسى : « إن كان صاحبك مليا" [٢٩] فخذ عنه «. [٣٠]

ومما يدلنا على حرص التابعين وأتباعهم وتحريهم الدقة في تحمل الحديث وأدائه ما جاء في مقدمة صحيح مسلم من حديث أبي عقيل قال : كنت جالسا" عند القاسم [٣١] ويحيى بن سعيد [٣٢] فقال يحيى للقاسم : يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيم أن يسأل عن شيء من أمر هذا الحديث فلا يوجد عندك منه علم ولا فرج أو علم ولا مخرج فقال له القاسم : وعم ذلك ؟ قال لأنك ابن إمامي هدى ابن أبي بكر وعمر قال : يقول له القاسم : أقبح من ذاك عند من عقل عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ من غير ثقة . قال : فسكت فما أجابه « . [٣٣] ولقد ظل الشعبي [٣٤] يسأل عن إسناد حديث حتى اطمأن إليه ، فقد أخرج الرامهرمزي من حديث الشعبي أن الربيع بن خثيم قال : من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير فله كذا وكذا وسمي من الخير ، قال الشعبي فقلت : من حدثك؟ فقال أبو أيوب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يحيى بن سعيد وهذا أول ما فتش عن الإسناد». [٣٥]

---

(٢٧)أخرجه مسلم في المقدمة،باب، بيان أن الإسناد من الدين ١/ ٨٤ (من صحيح مسلم بشرح النووي).

(٢٨)هو : طاوس بن كيسان الهمداني الخولاني ، كنيته : أبو عبد الرحمن من فقهاء أهل اليمن مات سنة إحدى ومئة . انظر تذكرة الحفاظ ١/ ٩٠ .

(٢٩)مليا" يعني ثقة ضابطا" متقنا" يوثق بدينه ومعرفته ويعتمد عليه كما يعتمد على معاملة الملي بالمال ثقة بذمته (شرح النووي لصحيح مسلم ١/ ٨٥) .

(٣٠) أخرجه مسلم في المقدمة ، باب ، بيان أن الإسناد من الدين ١/ ٨٥ (من صحيح مسلم بشرح النووي) .

(٣١) هو : القاسم بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب سمع من عائشة وابن عباس وابن عمر وطائفة . مات سنة سبع ومئة ، انظر تذكرة الحفاظ ١/ ٩٦ ، ٩٧ .

(٣٢) هو : يحيى بن سعيد الأنصاري النجاري المدني قاضي المدينة حدث عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد، وروي عنه ابن المبارك ويحيى القطان ، انظر تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٧-١٣٩ .

(٣٣) أخرجه مسلم في المقدمة ، باب ، الكشف عن معايب رواة الحديث ١/ ٩٠، ٩١(من صحيح مسلم شرح النووي

(٣٤) هو عامر بن شراحيل الهمذاني الكوفي ، ولد أثناء خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه وهو من التابعين ، سمع من عمر وأدرك خمسمئة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكان يستفتني والصحابة متوافرون . (تذكرة الحفاظ ١/ ٧٩-٨٨).

(٣٥) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي : ٢٠٨ .

اقتدى أتباع التابعين بمن سبقهم في التحري عن السند ، ويدلنا على ذلك ما جاء في مقدمة صحيح مسلم من أن أبا إسحاق إبراهيم بن عيسى الطالقاني قال : قلت لعبد الله بن المبارك [٣٦] : يا أبا عبدالرحمن الحديث الذي جاء : إن من البر بعد البر أن تصلي لأبويك مع صلاتك وتصوم لهما مع صومك . قال فقال عبد الله : يا أبا إسحاق عمن هذا ؟ قلت له : هذا من حديث شهاب بن خراش فقال : ثقة . عمن ؟ قال : قلت : عن الحجاج بن دينار قال : ثقة . عمن ؟ قال : قلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا أبا إسحاق بين الحجاج بن دينار وبين النبي صلى الله عليه وسلم مفاوز [٣٧] تنقطع فيها أعناق المطي . ولكن ليس في الصدقة اختلاف ، وقال عبد الله بن المبارك علي رؤوس الناس: دعوا حديث عمرو بن ثابت فإنه كان يسب السلف « [٣٨] .

إن هذا الحوار الذي دار بين أبي إسحاق وابن المبارك يؤكد لنا مدى حرص أتباع التابعين على اتصال السند بجانب بحثهم عن عدالة الرواة .

قال الإمام النووي معلقاً [٣٩]: « معنى هذه الحكاية أنه لا يقبل الحديث إلا بإسناد صحيح «.

ومن أمثلة أتباع التابعين الذين تكلموا في رجال السند الإمام الجليل مالك بن أنس [٤٠] فقد جاء في مقدمة صحيح مسلم أن بشير بن عمر قال : سألت مالك بن أنس عن محمد بن عبد الرحمن الذي يروي عن سعيد بن المسيب فقال : ليس بثقة ، وسألته عن أبي الحويرث فقال : ليس بثقة ، وسألته عن شعبة الذي روي عنه ابن أبي ذئب فقال : ليس بثقة ، وسألته عن حرام بن عثمان فقال : ليس بثقة ... وسألته عن رجل آخر نسيت اسمه فقال : هل رأيته في كتبي قلت : لا ، قال : لو كان ثقة لرأيته في كتبي ... هـ [٤١]

وقد جاء في مقدمة التمهيد أن الإمام الجليل مالك بن أنس قال : كنا نجلس إلى الزهري وإلى محمد

---

(٣٦) عبد الله بن المبارك بن واضح . ولد سنة ثماني عشرة ومئة سمع من سليمان التيمي ، وعاصم الأحول ، وحميد الطويل وهم في الطبقة الرابعة من التابعين حسب تقسيم الإمام الذهبي للطبقات (تذكرة الحفاظ ١/٢٧٤، ٢٧٥).

(٣٧) مفاوز : جمع مفازة وهى الأرض القفر البعيدة عن العمارة وعن الماء التي يخاف الهلاك فيها . قيل سميت مفازة للتفاؤل بسلامة سالكها كما سموا اللديغ سليماً ، وقيل لأن من قطعها فاز ونجا ، وهذه استعارة حسنة وذلك لأن الحجاج بن دينار هذا من تابعي التابعين فأقل ما يكون بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم اثنان التابعي والصحابي، فلهذا قال بينهما مفاوز أي انقطاع كثير ، انظر شرح صحيح مسلم للإمام النووي ١/٨٩ .

(٣٨) أخرجه مسلم في المقدمة ،باب، وصول ثواب الصدقة إلى الميت ١/٨٨، ٨٩ (من صحيح مسلم بشرح النووي).

(٣٩) انظر شرح صحيح مسلم للإمام النووي ١/٨٩ .

(٤٠) أبو عبد الله الأصبحي المدني الفقيه إمام دار الهجرة المتوفى سنة تسع وسبعين ومئة أخذ العلم عن علماء المدينة وسمع نافعاً مولى ابن عمر ومحمد بن المنكدر وأبا الزبير والزهري وكثيراً من التابعين وتابعيهم – انظر تهذيب التهذيب ١٠/٥-٨ تهذيب الأسماء ٢: ٧٥ .

(٤١) أخرجه مسلم في المقدمة ،باب، الكشف عن معايب رواة الحديث ١/١١٠-١٢٠ (من صحيح مسلم بشرح النووي) .

بن المكندر فيقول الزهري : قال ابن عمر كذا وكذا . فإذا كان بعد ذلك جلسنا إليه فقلنا له : الذي ذكرت عن ابن عمر من أخبرك به قال : ابنه سالم . « [٤٢]

ولقد كان التابعون وأتباعهم يأخذون ما عرفوا من الحديث ويتركون ما أنكروا، وكانوا يرجعون أحيانا إلى الثقات ليتحروا عن ذلك ، جاء في كتاب الجرح والتعديل أن الأعمش [٤٣] قال : « كان إبراهيم النخعي [٤٤] صيرفياً [٤٥] في الحديث ، وكنت أسمع من الرجال فأجعل طريقي عليه فأعرض عليه ما سمعت . وكنت آتي زيد بن وهب وضرباءه في الحديث في الشهر المرة والمرتين ، وكان الذي لا أكاد أغبه إبراهيم النخعي « . [٤٦]

وكانوا يتحرون الدقة عند سماع الحديث : ومن ذلك ما قاله سفيان الثوري [٤٧] : « إني لأروي الحديث على ثلاثة أوجه ، أسمع الحديث من الرجل أتخذه دينا وأسمع من الرجل أوقف حديثه ، وأسمع من الرجل لا أعبأ بحديثه وأحب معرفته « . [٤٨]

وهكذا تطور هذا الفن وصار التابعون وأتباعهم يدرسون أحوال الرواة للكشف عن مناقبهم ومعايبهم حماية للحديث النبوي الشريف ، ولقد تخصصوا في دراسة تواريخ الرواة وتتبعوا أحوالهم في مختلف حياتهم وتشددوا في معرفة ذلك وكانوا يعدلون من يستحق التعديل ويجرحون من يستحق التجريح لا تأخذهم في ذلك لومة لائم ، ويدلنا على ذلك ما أورده السخاوي في مؤلفه « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ « [٤٩] من قول ابن المديني لمن سأله عن أبيه ما يلي : سلوا عنه غيري . فأعادوا المسألة : فأطرق ثم رفع رأسه فقال : هو الدين . إنه ضعيف ..أ هـ. وكان وكيع بن الجراح لكون والده على بيت المال يقرن معه آخر إذا روي عنه .

---

(٤٢) مقدمة التمهيد : ١٠ .

(٤٣) هو:سليمان بن مهران أبو محمد الأعمش رأى بعض الصحابة كأنس بن مالك ولم يسمع منه شيئاً مرفوعاً، وسمع المعرور بن سويد وسعيد بن جبير ومجاهد وإبراهيم النخعي وروي عنه سفيان الثوري وشعبة، تاريخ بغداد ٣/٩.

(٤٤) هو:إبراهيم بن يزيد بن عمرو النخعي، مات سنة خمس أو ست وتسعين. انظر تذكرة الحفاظ ٧٣/١ ، ٧٤

(٤٥) الصراف والصيرف والصيرفي النقاد من المصارفه ، وهو من التصرف . انظر لسان العرب ١٩٠/٩ .

(٤٦) الجرح والتعديل ١٧/١ .

(٤٧) هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي الإمام كان من تابعي التابعين تلقى الحديث عن أبي إسحاق السبيعي وعبد الملك بن عمير وعمر بن مرة وعدد من التابعين وأخذ الحديث عن محمد بن عجلان والأعمش وهما تابعيان ، اتفق العلماء على إمامته وتقدمه في الحديث والفقه والورع والزهد . ولد سنة ٩٧ هـ وتوفي بالبصرة سنة ١٦١ هـ (تهذيب التهذيب ١١١/٤) (تهذيب الأسماء ٢٢٢/١) .

(٤٨) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : ١٢٠ .

(٤٩) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : ١٢٠ .

وقال أبو داود صاحب السنن : ابني عبد الله كذاب . وقال الذهبي في ولده أبي هريرة : إنه حفظ القرآن ثم تشاغل عنه حتى نسيه . وقال زيد بن أبي أنيسة : لا تأخذوا عن أخي يحيى المذكور بالكذب ... أهـ .

واتخذ التابعون من الجد في البحث عن أحوال الرواة ديدناً إلى أن استقر علم الجرح والتعديل في القرن الرابع الهجري وصنفه علماء المصطلح كعلم مستقل. وكان أول من أفرد هذا العلم بالتصنيف القاضي أبو محمد الحسن بن خلاد الرامهرمزي (٥٠) المتوفى عام ٣٦٠ هـ وذلك في مؤلفه « المحدث الفاصل بين الراوي والواعي » ولقد أوصل بعض العلماء هذا العلم إلى اثنين وخمسين علماً بل أوصله بعضهم الآخر إلى خمسة وستين .

ولم يكتف المحدثون بالنقد الشخصي للرجال بل ألفوا كتباً في تراجم الرجال ولمعرفة الثقات والمجروحين . ومن أمثلة ذلك كتاب « التاريخ الكبير للبخاري ، والثقات لابن حبان البستي ، والضعفاء الصغير للبخاري ، و تاريخ الرجال ليحيى بن معين وقد رواه عنه عباس الدوري وغيره .

وهناك مؤلفات عنيت برجال مصنفات مخصوصة ، كرجال الموطأ لابن الحذاء، ورجال البخاري لأبي نصر الكلاباذى وسماه : الإرشاد ، ورجال مسلم لأبي بكر بن منجويه ، ورجال البخاري ومسلم لهبة الله بن الحسن بن اللالكائي ، ورجال الكتب الستة للمزي ، ورجال ابن حبان للزين العراقي ، ورجال النسائي لأبي محمد الدورقي .

وهناك كتب ألفت في تواريخ الرجال أيضاً كتاريخ الثقات والضعفاء للبخاري و تاريخ الثقات لابن أبي خيثمة ، والتاريخ لخليفة بن خياط المعروف بشباب ، والطبقات الكبرى والصغرى لمحمد بن سعد ، وكتاب الجرح والتعديل لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ، وتاريخ نيسابور للحاكم، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي .

ولم ينس المؤلفون الصحابة بل ألفوا مصنفات تضم أسماء الصحابة والتابعين لكي يتعرف المسلمون عليهم ولا يخلطوهم بغيرهم ، ومن هذه الكتب : الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري .

ولقد ألفت المصنفات العديدة في ضبط الأسماء كالمختلف والمؤتلف للدارقطني، والمختلف والمؤتلف في مشتبه الأسماء لعبد الغني بن سعيد ، المتفق والمفترق للخطيب البغدادي إلى غيرها مما يطول ذكره ويعسر حصره .

---

(٥٠) هو الإمام الحافظ البارع ، محدث العجم أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الفارسي الرامهرمزي القاضي مصنف كتاب « المحدث الفاصل بين الراوي والواعي » في علوم الحديث أول طلبه للحديث كان في سنة تسعين ومائتين فكتب وجمع وصنف وساد أصحاب الحديث، توفي سنة ٣٦٠هـ ، انظر «سير أعلام النبلاء» ١٦/٧٣، ٧٤.

ثالثاً - من مناهج المحدثين في العناية بسند الحديث النبوي الشريف :

لقد بدأت العناية بالرواية ونقد الرجال شفاهة في القرن الأول الهجري وخاصة بعد عصر الفتنة . كما رأينا . حيث بدأ الزنادقة والمبتدعة يختلقون الأحاديث وينسبونها زوراً وبهتانا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنذ ذلك الحين بدأ الصحابة والتابعون وأتباعهم يسألون عن رجال السند ولم يقبلوا من الحديث إلا ما اطمأنوا إلى عدالة رواته كما فعل ابن عباس الذي قال : « فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف » . (٥١)

وبعد ذلك اتخذ التابعون وأتباعهم طلب الإسناد منهجاً لقبول الحديث أو رده . ويدلنا على ذلك ما جاء في مقدمة صحيح مسلم من قول ابن المبارك : « الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء (٥٢) . « وقول ابن المبارك أيضا : « بيننا وبين القوم القوائم .» (٥٣) يعني : الإسناد .

ومن الوسائل التي اعتمد عليها التابعون في التحقق من صحة الخبر الرحلة في طلبه ممن سمعه من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولهذا السبب كثرت رحلة بعض التابعين إلى الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . قال سعيد بن المسيب : إني كنت أسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد ...

وقال بشير بن عبدا لله الحضرمي : « إني كنت أركب المصر من الأمصار في طلب الحديث الواحد لأسمعه . « (٥٤)

ومن المناهج التي درج عليها التابعون وأتباعهم في التحري عن الإسناد تتبع الرواة والبحث عن تواريخهم وسيرهم ، وذلك لكشف ما يتعلق بأحوالهم من صدق وحرص على الحديث الشريف أو كذب وعدم اكتراث . ولقد أخذ التابعون وأتباعهم هذا العمل مأخذ الجد فكانوا لا يحابون أحداً مهما عظم شأنه أو اتصلت قرابته على حساب الدين . ومن ذلك ما ساقه السيوطي من أن أبا بكر بن خلاد قال ليحيى بن سعيد : أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله ؟ فقال : لأن يكونوا خصمائي أحب إليّ من أن يكون خصمي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لم لم تذب الكذب عن حديثي ؟ « (٥٥) . واستمرت هذه الجهود حتى القرن الثالث الهجري حيث اتخذ أئمة القرن الثالث كالبخاري ومسلم منهجاً

---

(٥١) أخرجه مسلم في المقدمة ،باب،النهي عن الرواية عن الضعفاء ١/ ٨١،٨٢ (من صحيح مسلم بشرح النووي) .

(٥٢)، (٥٣) أخرجه مسلم في المقدمة ،باب، إن الإسناد من الدين ١ / ٨٧ (من صحيح مسلم بشرح النووي)

(٥٣) (٥٤) جامع بيان العلم وفضله : ٩٤ـ ٩٥ .

(٥٥) تدريب الراوي ٢/ ٣٦٩ .

دقيقاً في قبول الحديث أو رده تبعاً لقوة الرواة أو ضعفهم واتخذوا من جمع طرق الحديث والموازنة بينها سبيلاً إلى تمييز الخبيث من الطيب ومن ثم وضعوا قواعد توضح من يؤخذ عنهم الحديث ومن لا يؤخذ عنهم . وبناء على ذلك أصبح المحدثون يتوقفون في مسألة الأخذ عن بعض الرواة عند عدم ظهور الوجه الصحيح في تجريحهم ، والرواة الذين كثر خطؤهم أو خالفوا الأئمة الثقات في مروياتهم والرواة الذين كثر نسيانهم ، والرواة الذين اختلطوا في آخر أعمارهم [٥٦]، والرواة الذين ساء حفظهم. كما توقفوا أيضا في الأخذ عمن يأخذ ولا يتحرى ممن أخذ ، كما رفضوا قبول أحاديث الكذابين والمتهمين بالكذب ، والزنادقة والفساق ، والمتروكين ، والمغفلين ، وكل من لا تتوفر فيهم صفات العدالة والضبط .

بين العلامة ابن كثير الشروط التي اشترطها المحدثون في الشخص الذي تقبل روايته في قوله : « هو الثقة الضابط لما يرويه ، وهو المسلم العاقل البالغ سالماً من أسباب الفسق وخوارم المروءة ، وأن يكون مع ذلك متيقظاً غير مغفل ، حافظاً إن حدث من حفظه فاهماً إن حدث عن المعنى فإن اختل شرط مما ذكرنا ردت روايته . » [٥٧]

ولما كان الخبر يقبل إذا ترجح صدق المخبر به ويرد إذا لم يترجح صدق المخبر به فقد وضع المحدثون منهجاً دقيقاً في تقييم حملة الحديث وإنزالهم منازلهم اللائقة بهم حسب أمانتهم وثقتهم وعدالتهم وضبطهم أو عكس ذلك من غفلة أو نسيان أو كذب . وتطور هذا المنهج على أيدي التابعين وأتباعهم كسعيد بن المسيب والشعبي وابن سيرين وشعبة [٥٨] والإمام مالك وهشام الدستوائي والأوزاعي والثوري وحماد بن سلمة [٥٩]والليث بن سعد [٦٠] ثم طبقه ابن المبارك وابن عيينه ووكيع بن الجراح [٦١] إلى

---

(٥٦) الجمهور على قبول رواياتهم قبل الاختلاط وردها بعد الاختلاط ، انظر تدريب الراوي في شرح تقريب النووي ٣٧٣/٢ .

(٥٧) اختصار علوم الحديث : ٩٨.

(٥٨) هو : سعيد بن المسيب ، فقيه المدينة ، اختلفوا في وفاته على أقوال أقواها سنة ٩٤ هـ، انظر تذكرة الحفاظ ٥٥/١، ٥٦ . هو : محمد بن سيرين ، كان أبوه عبداً لأنس بن مالك ، توفي سنة ١١٠ هـ ، انظر تذكرة الحفاظ ٧٧/١ ، ٧٨ .

(٥٩) هو : شعبة بن الحجاج بن ورد ، أبو بسطام العتكي الواسطي، توفي سنة ١٧٠ هـ ، انظر سير أعلام النبلاء ٢٠٢/٧-٢٢٩.

هو : أبو بكر هشام بن أبي عبد الله سنبر ، البصري كان يتجر في القماش الذي يجلب من دستواء ، توفي سنة ١٥٤ هـ ، انظر سير أعلام النبلاء ١٤٩/٧-١٥٦ .

هو : الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الدمشقي الحافظ ، توفي سنة ١٥٧ هـ، انظر تذكرة الحفاظ ١٧٨/١-١٨٣ . هو : أبو سلمة حماد بن سلمة بن دينار البصري ، توفي سنة ١٦٧ هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٤٤٤/٧-٤٥٣ .

(٦٠) هو : الليث بن سعد ، مولى فهم ، من أهل مصر ، توفي سنة ١٧٥ هـ ، انظر تذكرة الحفاظ ٢٢٤/١-٢٢٦ .

(٦١) هو : سفيان بن عيينة بن ميمون ، توفي سنة ١٩٨ هـ ، انظر سير أعلام النبلاء ٤٥٤/٨-٤٧٥. هو : أبو سفيان وكيع بن الجراح ، أحد أئمة الحديث الأعلام ، توفي سنة ١٩٧ هـ ، أنظر طبقات ابن سعد ٢٧٥/٢.

أن ظهرت المصنفات الكبرى في الجرح والتعديل كتواريخ البخاري الثلاثة والضعفاء للإمام البخاري والضعفاء للنسائي والضعفاء لابن حيان وكتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي .

ومن المناهج التي اتخذها المحدثون لتوثيق الراوي قبول التعديل دون بيان سببه وعدم قبول الجرح إلا مفسرا ولم يعدّوا ذلك شيئاً من الغيبة . ويدلنا على هذا ما أورده الرامهرمزي من حديث عفان حيث قال: كنت عند إسماعيل بن علية فحدث رجل عن رجل بحديث ، فقال : لا تحدث عن هذا فإنه ليس بثبت . قال: اغتبته ! فقال إسماعيل : ما اغتابه ، ولكنه حكم أنه ليس بثبت . وفيه أيضا أن يحيى بن سعيد قال : سألت سفيان الثوري وشعبة ومالك بن أنس وسفيان بن عيينة عن الرجل واهي الحديث فأسأل عنه ؟ فأجمعوا أن أقول : ليس هو بثبت ، وأن أبين أمره ..... وقال ابن المبارك: قلت لسفيان إن عباد بن كثير يغلط في الحديث فأذكره للناس ؟ قال : نعم اذكره » [٦٢] .

ويتضح لنا مدى حرص المحدثين على ذكر أسباب جرحهم للرواة ما رواه سويد بن عبد العزيز من أن شعبة قال له : « تأخذ من أبي الزبير وهو لا يحسن أن يصلي ! ؟ وتأخذ عن أبان بن أبى عياش وإنما كان قتادة يروي عن أنس مئتي حديث وهو يروي ألفين .. » [٦٣] .

ومن المناهج التي اتخذها المحدثون في التعرف على حال الرواة وصدق مروياتهم ملاحظة تواريخ المواليد والوفيات لهم ولشيوخهم للتحقق من إمكانية التقاء التلميذ بشيخه وتحمل الرواية عنه . ويمكن تلخيص الشروط التي وضعها المحدثون ورأوا ضرورة توفرها فيمن يتصدى لتحمل الحديث وأدائه [٦٤] فيما يلي :

أ - التمييز : ويقصد به فهم الحديث ونقله عن الشيخ بلا خطأ ، وتكلم المحدثون في جواز سماع الصبي المميز وإن لم يبلغ سن التكليف فأجاز ذلك الجمهور ومنعه بعض المحدثين ، وبين الخطيب البغدادي في الكفاية [٦٥] أن الراجح في ذلك هو قول الجمهور والدليل على ذلك هو أن الصحابة والتابعين ومن بعدهم قبلوا رواية أحداث الصحابة مثل الحسن والحسين ، ومحمود بن الربيع ، وأخرج البخاري من حديث

(٦٢) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ٥٩٤ ، ٥٩٥ .

(٦٣) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ٤١٨ ، ٤١٩ .

(٦٤) التحمل هو أخذ الحديث عن شيخ بطريق من طرق التحمل والأداء وهو رواية الحديث وتبليغه للناس . انظر الإلماع ٤ : ٦٤. من أراد التفصيل في مسألة التحمل والأداء يمكنه الرجوع إلى التقييد والإيضاح بشرح مقدمة ابن الصلاح ، والإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ، والكفاية في علم الرواية .

(٦٥) الكفاية في علم الرواية : ٨٠ .

الزهري قال : « أخبرني محمود بن الربيع الأنصاري أنه عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقل مجة مجها في وجهه من بئر كان في دارهم » [٦٦] .

ب ـ الإسلام : حيث أجمع المحدثون على أنه لا تقبل رواية الكافر إطلاقاً ولا يصح أداؤه .

جـ- البلوغ : وهو شرط اشترطه المحدثون للأداء بحيث يكون البالغ مميزاً وعاقلاً .

د ـ العدالة : وهى كما عرّفها الخطيب [٦٧] صفة راسخة في النفس تحمل صاحبها على ملازمة التقوى والمروءة فتحصل ثقة النفس بصدقه . وتعرف العدالة باجتناب الكبائر ومعظم الصغائر .

هـ- الضبط: وقد عرفه الخطيب بما يلي : « هو تيقظ الراوي وقت تحمل الحديث وفهمه لما سمعه وحفظه من وقت التحمل إلى وقت الأداء ومراجعة ما حفظه الراوي وفهمه فهماً دقيقاً سواء كان مصدر ضبطه الصدر أم الكتاب » [٦٨] .

ومن المناهج التي اتخذها المحدثون في توثيق الرواية التمييز بين طرق التحمل وصيغ الأداء ، ومن أمثلة ذلك :

أ ـ السماع من لفظ الشيخ : وذلك بأن يقرأ الشيخ ويسمعه الطالب ، سواء قرأ الشيخ من حفظه أو من كتاب، وسواء كان الطالب يسمع ما يلقى إليه أو يكتبه . وقد خصص علماء المصطلح كلمة سمعت أو حدثني للسماع .

ب ـ القراءة على الشيخ : وذلك بأن يقرأ الطالب ويسمعه الشيخ سواء قرأ الطالب أو قرأ غيره من حفظه أو من كتابه . قال بعض المحدثين : إنها مساوية للسماع . وقال آخرون إنها أدنى من السماع . وقال بعضهم الآخر إنها أعلى من السماع .

ويجوز أن يقول فيه قرأت على فلان ، أو حدثني قراءة عليه . والذي سار عليه كثير من المحدثين أن يؤديه الطالب بلفظ أخبرنا .

جـ ـ الإجازة ولها أنواع عديدة ومن صورها أن يجيز الشيخ معينا لمعين كقول الشيخ لتلميذه : أجزت لك أن تروي عني هذا الكتاب . وصيغة الأداء عند المتأخرين من المحدثين أن يقول هنا: أنبأنا .ومن صورها أيضا يجيز معينا بغير معين بأن يقول الشيخ لتلميذه أجزتك مسموعاتي .

---

(٦٦) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب ، العمل الذي يبتغي به وجه الله ٢٤١/١١ . (من صحيح البخاري بشرحه فتح الباري) . وأخرجه في كتاب الآذان ، باب ، من لم يرد السلام على الإمام واكتفى بتسليم الصلاة ٣٢٢/٢ . (من صحيح البخاري بشرحه فتح الباري) . أخرجه البخاري أيضاً في كتاب التهجد ، باب ، صلاة النوافل جماعة ٦٠/٣. (من صحيح البخاري بشرحه فتح الباري) .

(٦٧) الكفاية : ١٣ ، ١٤ .

(٦٨) انظر شرح الديباج المذهب : ٥٣ .

ولقد دقق العلماء كالإمام مالك في الإجازة واشترطوا فيها :

أن يكون المجيز عالماً بما يجيزه . والمجاز له من أهل العلم . قال ابن عبد البر : الصحيح أنها لا تجوز إلا لماهر في الصناعة وفي معين لا يشكل . (٦٩)

كما أنهم بينوا طرق المناولة المقرونة بالإجازة ، ومن أمثلة ذلك : أن يدفع الشيخ إلى تلميذه أصل سماعه أو فرعاً مقابلاً بالأصل ويقول : هذا سماعي أو روايتي عن فلان فاروه عني . أو أن يناول التلميذ شيخه ما سبق أن سمعه منه فيقابله الشيخ بالأصل وهو عارف متيقظ ويقول : هو حديثي أو سماعي فاروه . ولقد أنزل الثورى وجماعة المناولة عن درجة السماع . ومن دقة الجمهور أنهم خصصوا لهذه الحالة لفظا يشعر بالإجازة كحدثنا إجازة أو مناولة .

أما إذا كتب الشيخ لتلميذه بخطه ليجيزه ما كتب له فقد اعتبرها المحدثون كالمناولة المقرونة بالإجازة حتى وإن كتب له دون أن يجيزه فقد اعتبرت عند كثير من المحدثين متضمنة لمعنى الإجازة.

والتزم العلماء هذا المنهج في حياتهم وطبقوه تطبيقاً دقيقاً وذلك لضبط الأداء فقد جاء في المحدث الفاصل بين الراوي والواعي أنه قيل لمالك « أترى ما قرئ على العالم يقول فيه حدثنا ؟ قال: نعم ..أ هـ. وقال شعبة قلت لمنصور : إذا قرأت عليك ماذا أقول ؟ قال : قل : حدثنا .

وقال أبو الزرقاء : سمعت سفيان الثوري يقول في الرجل يقرأ على المحدث عشرة أحاديث أو أكثر أو أقل أو مسائل ، أيقول سمعت فلاناً ؟ قال : نعم ... وقيل للأوزاعي : ما قرأته عليك ؟ وما أجزته لي ما أقول فيهما ؟ فقال : ما أجزته لك وحدك فقل فيه أخبرني ، وما أجزته لجماعة أنت منهم فقل فيه أخبرنا وما قرأته عليك وحدك فقل فيه حدثني ، وما قرأته في جماعة أنت فيهم فقل فيه حدثنا». (٧٠)

ومن مناهج المحدثين في توثيق الرواية : البحث عن أسباب اختلاط الراوي ووهمه ليميزوا بين من كان ضعفه ناشئاً عن وهن في دينه وبين من كان ضعفه ناشئاً عن عدم الحفظ والإتقان .

ومن مناهج المحدثين أيضا التزام الأدب في تجريح الرواة واستعمالهم لعبارات رقيقة في الجرح بالقدر إلذي يفهم منه السامع أن الجارح يدعوه إلى ترك حديث الراوي المجروح والابتعاد عنه . مثال ذلك قول الإمام البخاري فيمن تركوا حديثه : فيه نظر، وسكتوا عنه ، ويطلق عبارة منكر الحديث على من لا تحل الرواية عنه . (٧١)

(٦٩) فيما يتعلق بالإجازة وأنواعها وما يجوز منها والأداء انظر: الخلاصة في أصول الحديث : ١٠٠ ـ ١١٤ .

(٧٠) المحدث الفاصل : ٤٢٣ .

(٧١) تدريب الراوي : ٣٤٩/١ .

ولقد أورد الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف في تدريب الراوي ما يلي : « ومن ألفاظهم أيضاً: فلان له بلايا أو هذا الحديث من بلاياه، قال برهان الدين الحلبي : هو كناية عن الوضع فيما أحسب قولهم له أحاديث مناكير لا يقتضى نزول روايته حتى تكثر المناكير فيها ، وحينئذ يقال فيه: منكر الحديث ، وروي المناكير ، وفي شرح الإلمام لابن دقيق العبد أن منكر الحديث موصوف بالترك وأما روي أحاديث منكرة فوصف بوقوع ذلك منه في حين من الأحيان لا دائماً» (٧٢) .

ومن مناهج المحدثين في توثيق الرواة عدم قبول جرح الأقران بعضهم لبعض ، فقد جاء في جامع بيان العلم وفضله (٧٣) قول ابن عباس رضى الله عنهما : اسمعوا علم العلماء ولا تصدقوا بعضهم على بعض ، والذي نفسي بيده لهم أشد تغايراً من التيوس في زربها».

ومن مناهج المحدثين طلب العلو في الإسناد ، وعلو الإسناد أقسام كثيرة ذكرها النووي في التقريب (٧٤) وأجلها القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح نظيف ، ويليه القرب من إمام من أئمة الحديث وإن كثر بعده العدد، ثم يأتي بعد ذلك العلو بالنسبة إلى رواية الكتب الخمسة أو غيرها من المعتمدة، ويليه العلو بتقدم وفاة الراوي ثم العلو بتقدم السماع.

ومن المناهج التي اتخذها المحدثون لتوثيق الرواية – البحث في أحوال الرجال والتحري في مدى تدينهم وتمسكهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ومن ذلك ما جاء في مقدمة صحيح مسلم عن محمد ابن سيرين أنه قال: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم». (٧٥)

ومن ذلك أيضا ما جاء في المحدث الفاصل من قول ابن سيرين . « اتقوا الله يا معشر الشباب وانظروا عمن تأخذون هذه الأحاديث فإنها دينكم . وقول الضحاك بن مزاحم: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه، وقول مالك بن أنس : إن هذا العلم هو لحمك ودمك وعنه تسأل يوم القيامة فانظر عمن تأخذه: .. وقوله: «لا يؤخذ الدين إلا عن أهل الدين» . (٧٦) ومن هنا اتخذ المحدثون منهجاً واضحاً في رد أحاديث أصحاب الأهواء والبدع إن كانوا يدعون إلى بدعهم . وفي هذا الشأن قال الإمام مالك بن أنس : «لا يؤخذ العلم عن أربعة ويؤخذ ممن سوى ذلك: لا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ، ولا من سفيه

---

(٧٢) تدريب الراوي : ٣٤٧/١ .

(٧٣) جامع بيان العلم وفضله ١٥١/٢

(٧٤) تدريب الراوي ٢ / ١٦١ - ١٧٢ .

(٧٥) أخرجه مسلم في المقدمة ،باب، النهي عن الرواية عن الضعفاء ٨١/١ ، ٨٢ (من صحيح مسلم بشرح النووي)

(٧٦) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي : ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

معلن بالسفه وإن كان من أروى الناس، ولا من رجل يكذب في أحاديث الناس وإن كنت لا تتهمه أن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من رجل له فضل وصلاح وعبادة إن كان لا يعرف ما يحدث . قال ابن عبد الله : أشهد أن مالكاً يقول : أدركت ببلدنا هذا ـ يعني المدينة ـ مشيخة لهم فضل وصلاح وعبادة يحدثون فما كتبت عن أحد منهم حديثاً قط .... لأنهم لم يكونوا يعرفون ما يحدثون (٧٧).

ومن المناهج التي اعتمدها المحدثون أيضاً البحث عن أنساب الرجال وكناهم وألقابهم للتمييز بينهم وتوضيح الأسماء والكنى المشكلة الصور التي يجمعها عصر واحد . ومن أمثلة ذلك أبو عمرو الشيباني سعد بن إياس ، وأبو عمرو السيباني بالسين غير معجمة الذي ابنه يحي بن أبي عمرو السيباني . وشيبان بن ربيعة وسيبان من اليمن . (٧٨)

رابعاً - بعض النتائج التي ترتبت على عناية المحدثين بسند الحديث النبوي الشريف:

لقد تبين لنا مما سبق أن المحدثين قد أولوا أسانيد الحديث عناية فائقة وكانت جهودهم في ذلك موفقة، وأينعت أطيب الثمار وخاصة في عصر تدوين السنة النبوية الشريفة . وتمثل ذلك في علم المصطلح الذي يقوم على قواعد علمية دقيقة تمكن العلماء من خلالها من توثيق الأخبار المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام وتابعيهم بالسند المتصل مع بيان الشروط المطلوبة في كل راو في طبقات السند المختلفة ، وبالتالي تمكنوا من معرفة ما قد يشوب الأخبار من علل واضطراب وشذوذ.

ويتضمن علم المصطلح كثيراً من العلوم التي خدمت الحديث النبوي الشريف كعلم الجرح والتعديل وهو العلم الذي يبحث في أحوال الرواة من حيث عدالتهم وضبطهم وأمانتهم ومن حيث غفلتهم أو كذبهم أو نسيانهم . ومن العلماء الذين ألفوا في هذا المجال الإمام الجليل أحمد بن حنبل ، ومحمد بن سعد كاتب الواقدي وعلي بن المديني والإمام البخاري والإمام مسلم . ومن الأئمة من ألف كتباً مخصوصة في الثقات كطبقات الحفاظ للذهبي، والثقات لأبي حاتم بن حبان البستي ، ومنهم من ألف كتباً مخصوصة في الضعفاء والمتروكين كما فعل البخاري والنسائي وابن الجوزي . كما ألف بعض العلماء كتباً مخصوصة في المدلسين فقط كما فعل الحسين بن على الكرابيسي والنسائي والدار قطني والسيوطي .

كما ألف بعض العلماء في الصحابة فقط كمؤلف عز الدين بن الأثير المسمى «أسد الغابة في معرفة

(٧٧) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

(٧٨) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي : ٢٧٥ .

الصحابة « وألف ابن حجر العسقلاني في تمييز الصحابة وسمى مؤلفه «الإصابة في تمييز الصحابة ».

ومن العلوم التي انبثقت عن علم المصطلح أيضاً علم طبقات الرواة [٧٩] حيث قسم العلماء طبقات الرواة حسب السبق ولقاء الشيوخ أو المناقب والسبق إلى الإسلام . وتعددت الطبقات تبعاً للاعتبارات التي سار عليها المؤلفون في مؤلفاتهم فمنهم من عد الصحابة طبقة واحدة، وجعل التابعين بعدهم طبقة ثانية ثم الذين من بعدهم طبقة ثالثة .

ومنهم من قسم الصحابة إلى طبقات حسب سبقهم إلى الإسلام أو هجرتهم أو شهودهم المشاهد والمعارك ، ثم قسم التابعين وأتباعهم إلى طبقات ، ومنهم من جعل حد الطبقة أربعين عاماً فقط .

لقد أدى استقرار علم المصطلح إلى معرفة جوانب كثيرة تتعلق بالحديث الشريف كمعرفة الآثار المرفوعة والموقوفة والمقطوعة ، ومعرفة المسانيد من الأحاديث ومعرفة الصحابة على مراتبهم ومعرفة التابعين وأتباعهم من خلال المصنفات التي ألفت في ذلك .

كما أن التدقيق في السند أدى إلى معرفة الخبر المقبول سنداً ومتناً . كالصحيح والحسن ، والأخبار المردودة سنداً ومتناً بأنواعها المختلفة حيث إن قوة الحديث وضعفه تتوقف في المقام الأول على مدى قوة حملة الحديث أو ضعفهم مما أدى إلى تفاوت مراتب الخبر المقبول في ذاته وتراوح مراتب الخبر المردود في ذاته أيضا . بل إن تتبع العلماء للطرق التي بلغهم بها الخبر أدى إلى ظهور أنواع مختلفة من الأخبار القوية كالمتواتر وما دون ذلك وكأحاديث الآحاد بأقسامها المختلفة من مشهور وعزيز وغريب .

وأدى التدقيق في السند أيضاً إلى معرفة الأحاديث الضعيفة التي ينتج ضعفها عن سقوط في السند ، كالمرسل والمعلق والمعضل والمنقطع ، أو التي نتج ضعفها عن طعن في الراوي كالمتروك والمنكر، والمضطرب والمقلوب والمعلل ، وغير ذلك .

كما أدى تتبع المحدثين لأسماء الرواة إلى معرفة كثير من الأسماء المشكلة والتمييز بينها في سهولة ويسر، ساعدهم ذلك في نسبة الآثار إلى قائليها بصورة دقيقة بعد توصلهم إلى معرفة اللقب والنسب الصحيح للراوي .

ويدلنا على ذلك ما ورد في كتاب المحدث الفاصل بين الراوي والواعي [٨٠] حيث قال المؤلف ما يلي :

« لو سأل سائل عن الحسن بن دينار فقال هو أبوه أو جده أو أبو جده فأيها أجاب المسؤول فقد أخطأ لأن دينار هو زوج أمه عرف به فنسب إليه .

---

(٧٩) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث : ٢٠٩ .

(٨٠) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي : ٢٦٥ .

ومن أمثلة ذلك أيضا قولهم : فلان البدري شهد بدراً أما أبو مسعود البدري فإنه كان ينزل ماء بدر وليس ممن شهد بدراً ، وفلان القارئ من قراءة القرآن ، وعبد الرحمن ابن عبد القاري من القارة ، ويزيد الفقير كان يألم فقار ظهره حتى ينحني لها وليس من الفقر ... والضحاك المشرقي مكسور الميم مفتوح الراء منسوب إلى مشرق بطن من همدان ، أ. هـ [٨١] .

كما أدى تتبع المحدثين للأسماء والكنى إلى سهولة التفرقة بين الأسماء والكنى المشكلة الصور التي يجمعها عصر واحد ، ومن أمثلة ذلك ما جاء عند الرامهرمزي أيضا من قوله : كأبي جمرة بالجيم وهو نصر بن عمران الضبعي وأبي حمرة بالحاء وهو عمران بن أبي عطاء القصاب وكلاهما رويا عن ابن عباس رضي الله عنه واشتركا فيما روي عنهما . ويردان في الحديث غير مسمين . [٨٢]

أما المحدثون الذين اتفقت كناهم وعصورهم كالمكنيين بأبي صالح فهم جماعة . ولقد بين الرامهرمزي أن منهم من اشترك في الرواية عن أبي هريرة وهم عشرون أو نحو ذلك .

بل إن دقة هذا المنهج قد سهلت على المحدثين الكشف عن الرواة المعروفين بنعوتهم وألقابهم والرواة المنسوبين إلى أمهاتهم ومن أمثلة ذلك آبى اللحم وهو أبو عبد الله بن عبد مالك ويقال إن اسمه خلف ابن عبد مالك ... وسفينة مولى رسول الله واسمه صالح ... وابن عائشة وهو محمد بن حفص بن موسى بن عبد الله بن معمر ، وشرحبيل بن حسنة وهو شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن عمرو ، وابن أم مكتوم واسمه عمرو بن قيس ويقال اسمه عبد الله بن زائدة وأم مكتوم أمه . [٨٣]

أدت دقة هذا المنهج أيضا إلى صيانة المتون من الزيادة أو النقص والغلط . وظهر كذلك نتيجة لتطور علم الإسناد ما يعرف في علم المصطلح بالاعتبار والمتابعات والشواهد [٨٤] وهي أمور يستعين بها المحدث على تقوية درجة أحاديث الآحاد . يقول في ذلك صاحب تدريب الراوي في شرحه للتقريب : « فمثال الاعتبار أن يروي حماد مثلاً حديثاً لا يتابع عليه عن أيوب عن ابن سيرين عن أبي هريرة عن النبي صلى

---

(٨١) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي : ٢٦٤ .

(٨٢) و (٨٣) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث : ١٨٥-١٨٩ .

(٨٤) قال ابن حجر : الاعتبار والمتابعات والشواهد هذه أمور يتداولها أهل الحديث (يتعرفون بها حال الحديث) ... فالاعتبار أن يأتي إلى حديث لبعض الرواة فيعتبره بروايات غيره من الرواة بسبر – أي تتبع – طرق الحديث ليعرف هل شاركه في هذا الحديث راو غيره فرواه عن شيخه أو لا ؟ فإن لم يكن فينظر هل تابع أحد شيخ شيخه فرواه عمن روي عنه ؟ وهكذا إلى آخر الإسناد . وذلك المتابعة . فإن لم يكن فينظر هل أتى بمعناه حديث آخر ؟ وهو الشاهد .... فليس الاعتبار قسيماً للمتابع والشاهد بل هو هيئة التوصل إليهما ، انظر تدريب الراوي : ٢٤١/١ ، ٢٤٢ .

الله عليه وسلم . فينظر هل رواه ثقة غير أيوب عن ابن سيرين فإن لم يوجد فغير ابن سيرين عن أبي هريرة ، وإلا فصحابي آخر غير أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فأي ذلك وجد علم أن للحديث أصلاً يرجع إليه وإلا فلا . والمتابعة أن يرويه غير حماد وهي المتابعة التامة أو عن ابن سيرين غير أيوب أو عن أبي هريرة غير ابن سيرين أو عن النبي صلى الله عليه وسلم صحابي آخر فكل هذا يسمى متابعة ... وتسمى المتابعة شاهداً والشاهد أن يروى حديث آخر بمعناه ولا يسمى هنا متابعة . (٨٥)

ومن المحدثين من يخالف بين المتابعة والشاهد ويقول : إن الصحيح التفريق بينهما .كما أدت دقة مناهج المحدثين إلى ظهور ما يعرف في علم المصطلح بزيادة الثقات واختلاف العلماء في قبول تلك الزيادة أو ردها ، وأدى ذلك بدوره إلى معرفة العلل الغامضة (٨٦) الخفية التي تقدح في صحة الحديث مع أن ظاهره السلامة من تلك العلل .

ولقد أدت دقة مناهج المحدثين إلى الكشف عن عيوب الرواة حتى إنهم تمكنوا من معرفة الوضاعين وتصنيفهم في مصنفات خاصة بهم ، كما تمكنوا من معرفة الأحاديث الموضوعة بطرق في غاية الإحكام كما يبدو ذلك في الأمثلة التالية التي وردت في تدريب الراوي :

(أ) قال العراقي : أن يحدث الراوي عن شيخ ويسأل عن مولده فيذكر تاريخا يعلم وفاة ذلك الشيخ قبله، ولا يعرف ذلك الحديث إلا عنده .

(ب) أن يكون الحديث ركيك اللفظ والمعنى ، فقد وضعت أحاديث كثيرة حكم بوضعها لركاكة ألفاظها ومعانيها. يقول الربيع بن خثيم في هذا الشأن : إن للحديث ضوءاً كضوء النهار تعرفه وظلمة كظلمة الليل تنكره. وقال ابن الجوزي : الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم وينفر منه قلبه في الغالب.

وقال شيخ الإسلام (٨٧) : المدار في الركة ركة المعنى فحيثما وجدت دل على الوضع وإن لم ينضم إليه ركة اللفظ لأن هذا الدين كله محاسن والركة ترجع إلى الرداءة .... أما ركاكة اللفظ فقط فلا تدل على ذلك ، لاحتمال أن يكون رواه بالمعنى فغير ألفاظه بغير فصيح . نعم إن صرح بأنه من لفظ النبي صلى الله عليه وسلم فكاذب .

(جـ) أن يكون الحديث مخالفاً للعقل بحيث لا يقبل التأويل ، ويلحق بذلك ما يدفعه الحس والمشاهدة .

---

(٨٥) تدريب الراوي : ١/ ٢٤٢ـ ٢٤٣ .

(٨٦) ما يختص بالعلل الخفية انظر : تدريب الراوي ١/ ٢٥١ـ ٢٦١ .

(٨٧) المراد به هنا : الحافظ بن حجر رحمه الله .

(د) أن يكون الحديث منافياً لدلالة الكتاب القطعية أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعي أما المعارضة مع إمكان الجمع فلا .

(هـ) ومنها الإفراط في الوعيد الشديد على الأمر الصغير أو الوعد العظيم على الفعل الحقير ، وهذا كثير في أحاديث القصاص .

(و) يعرف الحديث الموضوع أيضاً بقرائن في الراوي وذلك بأن يكون الراوي رافضياً والحديث في فضائل أهل البيت . (٨٨)

وبناء على هذه المناهج الدقيقة فقد تمكن العلماء من تنقية السنة الشريفة من الشوائب والأدران التي حاول أن يلصقها بها أصحاب الأهواء والبدع والمنافقون وغيرهم . ولقد توجت جهودهم بجمع الأحاديث النبوية وتوثيقها وتصنيفها وتقسيمها إلى مراتب محددة تتراوح بين : الصحيح والحسن والضعيف ثم الموضوع .

خامساً- الرد على الشبهات التي أثارها المستشرقون حول عناية المحدثين بسند الحديث:

١- عند استعراضنا للتهم التي أثارها المستشرقون حول أساليب المحدثين في العناية بسند الحديث رأينا أن المستشرق مونتجمري وات والمستشرق هاملتون جيب قد زعما أن اهتمام المحدثين بأسانيد الحديث قد بدأ متأخراً ، حيث ظل المسلمون خلال القرن الأول وإلى منتصف القرن الثاني الهجري يروون الأحاديث ويتناقلونها دون اهتمام يذكر بالسند .

ولكن اتضح لنا من استعراض نشأة علم الإسناد وتطوره أن هذا العلم قد نشأ في ضوء توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة حيث أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالتحري قبل قبول الأنباء أو ردها وذلك في قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا « كما حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب عليه وذلك في الحديث المتواتر عنه : «من كذب عليَ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». وتبين لنا مما سبق أن الصحابة والتابعين وأتباعهم امتثلوا لأمر الله ورسوله ودققوا في تحمل الأخبار روايتها وازداد التحري والتدقيق في ذلك بعد عصر الفتنة ، فصاروا يسألون عن رجال السند ويتتبعون أهل الثقة والإتقان ويأخذون حديثهم ويرفضون حديث أهل البدع .

ورأينا أن كثيراً من التابعين وأتباعهم كانوا يتحرون عن السند كما كان يفعل الصحابة تماماً ومن أمثلة ذلك : الشعبي [٨٩] الذي كان يبحث في الأسانيد حتى يطمئن إلى سلامة المتن ، وابن المبارك الذي كان

---

(٨٨) نظر تدريب الراوي ١ / ٢٧٥ ـ ٢٧٧ .

(٨٩) أخرجه مسلم في المقدمة ، باب ، وصول ثواب الصدقات للميت ٨٨/١، ٨٩ (انظر صحيح مسلم بشرح النووي) .

يكشف معايب رواة الحديث ويقول على رؤوس الخلق : دعوا حديث عمرو بن ثابت فإنه كان يسب السلف أهـ . وشعبة بن الحجاج [٩٠] الذي كان لا يصبر على الكذابين ويبين حالهم وكان شعبة يقول : تعال يا عمران نغتاب في الله ساعة ، نذكر مساوئ أصحاب الحديث. والإمام مالك بن أنس الذي كان يقول : من روي عن ضعيف فقد بدأ بنفسه أ.هـ وكان المحدثون كابن عيينه يقولون : إنا كنا نتبع آثار مالك وننظر الشيخ إن كان مالك كتب عنه وإلا تركناه أهـ.

واستمر البحث والتدقيق والسؤال عن أحوال الرواة إلى أن اكتمل هذا الفن وبلغ ذروته في القرن الثالث الهجري، وتعددت فيه المصنفات التي تعنى بعلم الحديث رواية ودراية ، وظهرت المصنفات الخاصة بطبقات الرجال وتواريخهم وسيرهم ومناقبهم وتوثيقهم وتجريح من يستحق الجرح منهم.

٢ ـ أما فيما يختص بزعم المستشرق جيب والمستشرق لامينز: أن علماء الجرح والتعديل لم يتحروا الدقة والموضوعية في نقدهم للرجال ، وأنهم لم يلتزموا بالقواعد التي وضعوها لنقد رجال السند مما يوحي بأن منهج المحدثين في الجرح والتعديل لم يكن منهجاً قويماً فيبطله ما رأيناه في سياق هذا البحث من أن المحدثين كانوا يتحرون الدقة ويسألون عن أسانيد الحديث وكان هذا ديدنهم منذ عصر الصحابة إلى عصر المصنفات الكبرى وما بعدها.

ومما يدلنا على عدالة المحدثين وأمانتهم أنهم لم يحكموا ميولهم ونزعاتهم الشخصية عند الجرح أو التعديل كما ادعى المستشرقان جيب ولامينز ، بل كانوا لا يتورعون عن تجريح أقرب الناس إليهم . ورأينا كيف أن ابن المديني قال لمن سأله عن أبيه : «هو الدين إنه ضعيف « . وقال أبو داود صاحب السنن : «ابني عبد الله كذاب « . وقال الذهبي في جرح ولده : « إنه حفظ القرآن ثم تشاغل عنه حتى نسيه « . وقال زيد بن أبي أنيسة : « لا تأخذوا عن أخي يحيى المذكور بالكذب» أهـ. [٩١]

أما زعم هذين المستشرقين من أن المحدثين قد وضعوا قوانين لتمحيص رجال السند ولكنهم لم يهتموا بتطبيق تلك القوانين مما أدى إلى صعوبة تمييز صحيح الحديث من سقيمة ، فيبطله ما درج عليه المحدثون من التحري في أحوال رجال السند حتى وإن اقتضى ذلك الرحلة في طلبهم إلى بلاد بعيدة ، ويبطله أيضاً ما كان عليه المحدثون من الجهر بآرائهم في الكذابين والمدلسين كما فعل شعبة عندما مر بمحدث يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فبين شعبة أمر هذا المحدث وجرحه قائلاً : كذب والله ولولا أنه لا يحل لي أن أسكت عنه لسكت. وكانوا يتحرون حتى في رواية الثقات إن توهموا انقطاعاً في سلسلة السند كما

(٩٠) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي : ٢٠٨ .

(٩١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : ١٢٠ .

فعل الإمام مالك بن أنس مع الزهري حيث كان يسمع في المجلس الحديث من الزهري عن ابن عمر رضي الله عنهما ثم يذهب إليه فيسأله عمن حدثه عن ابن عمر فيقول الزهري : حدثني عنه ابنه سالم.

ولقد تمخض عن التزام المحدثين بالمناهج الدقيقة في الجرح والتعديل وتتبع أحوال الرواة وتواريخهم أنهم استطاعوا توثيق الحديث النبوي الشريف ، وتمييز الخبر المقبول عن المردود ، مما كان له اكبر الأثر في حفظ السنة النبوية الشريفة وتنقيتها من الأدران التي حاول أن يلصقها بها المبتدعة وغيرهم. أما ادعاء المستشرق لامينز أن المحدثين قد تساهلوا في طلب الأسانيد عند توثيقهم لرواة الحديث المتواتر فهو قول غريب ! لأن معنى التواتر عند المحدثين هو ما رواه جمع غفير عن جمع غفير بحيث تحيل العادة تواطؤهم على الكذب فما هو الداعي لطلب الأسانيد في مثل هذه الحالة مع وجود هذا الجمع الغفير الذي يجعل المرء يطمئن لمثل هذه الأخبار التي هي في حكم اليقين ؟

٣. أما زعم المستشرق فريلاند أبوت والمستشرق هاملتون جيب : أن كثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة المتضمنة في كتب السنة الصحيحة من ابتكار المحدثين ، وأن أصحاب المصنفات الحديثية الكبرى قد وجهوا جل اهتمامهم إلى جمع المتون وتكديسها والتوسع في ذلك مما أدى إلى تساهلهم في الأسانيد ، ومن ثم أدى إلى تسرب روايات الضعفاء والمجهولين والمتروكين إلى مصنفاتهم، وأن الإمام البخاري نفسه لم يلتزم القواعد التي عملها لفحص السند ، فيبطله ما سبق أن رأيناه من سير المحدثين منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم والى عصر تصنيف الحديث في المصنفات الخاصة بالحديث فقط ، حيث كانوا يتصفون بالتقوى والورع ويتمسكون بكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم تمسكاً شديداً مما حال بينهم وبين اختلاق الأحاديث أو قبول نسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم دون سند يطمئنون إليه.

ورأينا كذلك أن أصحاب المصنفات الكبرى التي أفردت للحديث فقط وغيرهم قد اقتدوا بالصحابة وأتباعهم في نقد الرجال وتمحيص متون الأحاديث، ومن أمثلة ذلك الإمام أحمد بن حنبل وهو صاحب المسند المعروف وقد جمع فيه أربعين ألف حديث بالمكررة سنداً ومتناً والتزم التحري عن رجال السند إلى منتهاه وذلك حسب مرويات كل صحابي على حده . وكان يسمع الحديث من عدة وجوه ليضبطه . وهذا يدل على عنايته الفائقة بسلامة السند. وكان الإمام أحمد بن حنبل يكتب الأحاديث الضعيفة للاعتبار فقط وليس للاستدلال.

ومن أصحاب المصنفات الكبرى الذين عنوا برجال السند أيضاً الإمام البخاري [٩٢] الذي وعى الحديث الشريف سنداً ومتناً وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وكان ابن صاعد يلقبه بالكبش النطاح لعلمه ولدقة فهمه لهذا الفن.

كما عمد علماء بغداد إلى مئة حديث ، قلبوا متونها وأسانيدها وسألوا البخاري عنها ليتأكدوا من قوة حفظه ، فرد البخاري كل سند إلى متنه فشهدوا له بالفضل . وهذا يدل على أن البخاري كان شديد الذكاء شديد الوعي لما يجمع ويحفظ .

وكان الإمام البخاري لا يكتب حديثاً إلا إذا سأل عن حال رواته قال البخاري : كنت إذا كتبت عن رجل سألته عن اسمه وكنيته ، ونسبه ، وحمله للحديث ، إن كان الرجل فهماً . فإن لم يكن سألته أن يخرج إلي أصله ونسخته .. أهـ . وهذا يبطل زعم المستشرق جيب أن البخاري لم يلتزم الشروط التي عملت لقبول الحديث أو رده ، وأنه لم يكن يهتم برجال السند مما أدى إلى تسرب روايات المجهولين والأساطير الوثنية وأساطير أهل الكتاب إلى صحيحه.

ومن أصحاب المصنفات الكبرى الذين عنوا بأسانيد الحديث أيضا الإمام مسلم رحمه الله . ويتجلى لنا ذلك عند الاطلاع على مقدمة النووي لصحيحه حيث ورد فيه من قول أبى عمرو بن الصلاح ما يلي : « شرط مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه أن يكون الحديث متصل الإسناد بنقل الثقة عن الثقة من أوله إلى منتهاه سالماً من الشذوذ والعلة ... وهذا حد الصحيح» [٩٣] .

أما عناية الإمام مسلم بسند الحديث فقد تجلت في الأخبار التي انتقدها وضعفها في مؤلفه المسمى التمييز منها نقده لخبر نقل عن ابن لهيعه بقوله : « وابن لهيعه المصحف في متنه المغفل في إسناده « [٩٤] . وبين الإمام مسلم في مصنفه التمييز أخباراً عديدة كان سبب ضعفها هو وقوع الوهم من رواتها ، ثم بين الأخطاء التي وقعت من جهة رجال السند مما يوحي بدقة منهجه وحرصه على أسانيد الحديث كمتونها تماماً . كما أن الإمام مسلماً [٩٥] لم يكن يدخل في مؤلفه الصحيح حديثاً إلا بعد أن يتأكد من سلامة الأسانيد .. أهـ .

وهذا أيضا يبطل زعم هذين المستشرقين من أن روايات الضعفاء والمجهولين والمتروكين قد تسربت إلى المصنفات الحديثية كما أن الصفات التي اشترطها المحدثون لتحمل الحديث وأدائه لتجعلنا نطمئن إلى صحة مروياتهم . ويدلنا على ذلك ردهم للأخبار إذا اختل شرط واحد من شروط القبول لديهم وهي اتصال السند ، عدالة الرواة ، ضبط الرواة ، وعدم الشذوذ ، وعدم العلة . وبالتالي تصبح كل هذه التهم التي أثارها المستشرقون حول عناية المحدثين بسند الحديث تهماً باطلة لا أساس لها من الصحة .

---

(٩٢) انظر سير أعلام النبلاء ، ترجمة رقم : ١٧١ ، ١٠/٣٩١-٤٧١ .

(٩٣) انظر مقدمة الإمام النووي لصحيح مسلم ١ / ١٥ .

(٩٤) التمييز : ٢٠ .

(٩٥) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث : ١٨ .

الخاتمـــة

نخلص من هذا البحث إلى النتائج التالية :-

(١) إن المحدثين من أصحاب المصنفات لم يهتموا بجمع المتون وتكديسها فقط بل بحثوا في أحوال رجال السند ، وكان من أهم شروطهم لقبول المتن أو رده مدى قوة الراوي أو ضعفه . وقد رحل المحدثون في أنحاء الوطن الإسلامي طلباً للحديث ، ولم يكونوا يقبلونه على علاته ، بل كانوا يتأكدون من سلامة الراوي والمروي ، وكانوا ينتقدون الرجال بكل دقة وموضوعية ، ولم يسلم من نقدهم حتى أقرب الناس إليهم وكانوا يشددون في ذلك ، فقد قال بعضهم : « إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم». فضلاً عن دقة الشروط التي اتخذها أصحاب المصنفات الحديثية الصحيحة لقبول الرواية وتدوينها لتدل على عدم تسرب روايات الضعفاء من المجهولين والمتروكين والوضاعين إلى المصنفات الحديثية التي تلقاها جمهور المسلمين بالقبول والرضا التام .

(٢) إن الوضاعين وضعوا كثيراً من الأحاديث بعد عصر الفتنة وفي العصور المتأخرة ، إلا أن الجهابذة من المحدثين تصدوا لهم وفضحوا مخططاتهم ، وجمعوا هذه الأحاديث الموضوعة في مصنفات معروفة إلى يومنا هذا ، مما يدل على أن هذه الأحاديث لم تتسرب إلى السنة النبوية الصحيحة .

(٣) إن علماء الجرح والتعديل قد وضعوا مناهج دقيقة لقبول الأحاديث أو ردها ، كما قاموا بتطبيق هذه المناهج تطبيقاً صارماً في دراساتهم ومؤلفاتهم العديدة التي شملت دراسة الحديث رواية ودراية.

وبذلك يتضح لنا مما سبق أن التهم التي أثارها المستشرقون حول أساليب المحدثين في العناية بسند الحديث تهم ملفقة وباطلة لا تستند الى أساس .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مراجـع عربيـة

(١) الأصبهاني ، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، مكتبة الخانجي بمصر، دون تاريخ.

(٢) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، إدارة الطباعة المنبرية بمصر ، دون تاريخ .

(٣) ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبوا الفداء إسماعيل بن عمر، اختصار علوم الحديث، تحقيق، أحمد محمد شاكر، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده بمصر، الطبعة الثالثة دون تاريخ .

- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، تأليف : أحمد محمد شاكر ، طبع مكتبة دار الفرات ، الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

(٤) ابن ماجة ، محمد بن يزيد القزويني ، سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، طباعة دار الفكر ، دون تاريخ .

(٥) البستي ، محمد بن حبان ، المجروحين من المحدثين و الضعفاء والمتروكين ، تحقيق محمد إبراهيم زايد ، طبع دار الوعي بحلب ، الطبعة الأولى عام ١٣٩٦ هـ .

(٦) التبريزي ، شمس الدين محمد الحنفي ، شرح الديباج المذهب في مصطلح الحديث ، طبع شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الثانية عام ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م .

(٧) الحاكم ، محمد بن عبد الله النيسابوري ، معرفة علوم الحديث ، تصحيح ومراجعة السيد معظم حسين ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، بدون تاريخ .

(٨) الخطيب البغدادي . أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت :

أ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، تحقيق د . محمود الطحان ، مكتبة المعارف ، المملكة العربية السعودية عام ١٤٠٣ هـ. ١٩٨٣ م .

ب- الرحلة في طلب الحديث ، تحقيق نور الدين عتر، الطبعة الأولى، عام ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م .

جـ- السابق واللاحق ، تحقيق محمد مطر الزهراني ، طبع دار طيبة للنشر والتوزيع الرياض ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٢ هـ. ١٩٨٢ م .

د - شرف أصحاب الحديث ، تحقيق د . محمد سعيد خطيب أوغلي ، دار إحياء السنة النبوية عام ١٣٨٩ هـ. ١٩٧٦ م .

هـ - الكفاية في علم الرواية ، تقديم محمد الحافظ التيجاني مراجعة عبد الحليم محمد عبد الحليم وعبد الرحمن حسن محمود ، الطبعة الأولى ، دون تاريخ .

(٩) الذهبي . شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد :

أ - تذكرة الحفاظ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت. لبنان ، دون تاريخ .

ب- سير أعلام النبلاء ، إشراف شعيب الأرنؤوط ، تحقيق نذير حمدان ، مؤسسة الرسالة الطبعة العاشرة ١٤١٤هـ-١٩٩٤م .

(١٠) الرازي . عبد الرحمن بن أبي حاتم ، الجرح والتعديل ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٧٣ هـ -١٩٥٢م ، دون تاريخ .

(١١) الرامهرمزي ، أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد ، المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ، تحقيق د . محمد عجاج الخطيب ، طبع دار الفكر بيروت الطبعة الأولى عام ١٣٩١ هـ- ١٩٧١ م .

(١٢) الطيبي . الحسين بن عبدالله ، الخلاصة في علوم الحديث ، تحقيق صبحي السامرائي ، مطبعة الإرشاد بغداد عام ١٣٩١ هـ- ١٩٧١ م .

(١٣) العسقلاني . ابن حجر أحمد بن علي ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تصحيح وتحقيق الشيخ عبد العزيز عبد الله بن باز ، دار المعرفة بيروت لبنان ، دون تاريخ .

(١٤) القشيري ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج ، التمييز ، تحقيق وتعليق د. محمد مصطفى الأعظمي ، مطبوعات جامعة الرياض ، بدون تاريخ .

(١٥) النووي . محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف الدين :

أ - تهذيب الأسماء واللغات ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، دون تاريخ.

ب- شرح صحيح مسلم ، طبع دار الفكر عام ١٤٠١ هـ-١٩٨١م .

(١٦) اليحصبي ، القاضي عياض بن موسى :

أ - الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ، تحقيق السيد أحد صقر ، طبع دار التراث بالقاهرة ، الطبعة الأولى عام ١٣٨٩ هـ- ١٩٧٠ م .

ب- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق د . أحمد بكير محمود ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت - لبنان ، دون تاريخ .

مراجـع أجنبيـة

1 - Freeland Abote .Islam and Pakistan. Corneil University Press. . New York 1968.

2 - GIBB Mohammedanism. an Historical Survey. 1973 .

3 - Lammens . H.Islam Belief and Institution. Frank Cass &Co. LTD. 1968.

4 - Montogomery Watt. The Formative Period of Islamic Thought. Edinburgh University Press. 1973.

5 - Norman Daniel.

A - Islam and the west. Beirut.Khayats Publisher. 1965 .

B - The Religious Attitude and Life in Islam. Edinburgh .University Press. 1960.